

تفسير ابن كثير

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم وطردا عن بابيه وجناياه وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح فقال تعالى : { ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا } يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة ولرسوله ولكتابه وقد ذكر ابن عباس عن ابن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجابرة فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب قال محمد بن إسحاق : فكان من سبط روبيل شامون بن ركون ومن سبط شمعون شافاط بن حري ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا ومن سبط أتين ميخائيل بن يوسف ومن سبط يوسف وهو سبط إفرايم يوشع بن نون ومن سبط بنيامين فلطم بن دفون ومن سبط زبولون جدي بن شوري ومن سبط منشا بن يوسف جدي بن موسى ومن سبط دان خملائيل بن حمل ومن سبط أشار ساطور بن ملكيل ومن سبط نفتالي بحر بن وقسي ومن سبط يساخر لايل بن مكيد .

وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لم ذكره ابن إسحاق والله أعلم قال فيها : فعلى بني روبيل اليصور بن سادون وعلى بني شمعون شموال بن صورشكي وعلى بني يهوذا الحشون بن عمياذاب وعلى بني يساخر شال بن صاعون وعلى بني زبولون الياب بن حالوب وعلى بني إفرايم منشا بن عمنهوور وعلى بني منشا حمليايل بن يرصون وعلى بني بنيامين أبيدن بن جدعون وعلى بني دان جعيذر بن عميشدي وعلى بني أشار نحاييل بن عجران وعلى بني كان السيف بن دعواييل وعلى بني نفتالي أجذع بن عمينان .

وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيبا : ثلاثة من الأوس : وهم أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر ويقال بدله أبو الهيثم بن التيهان B وتسعة من الخزرج وهم : أبو أمامة أسعد بن زراة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمر بن حنيش Bهم وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له كما أورده ابن إسحاق C والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ

عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال : كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن هل سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ثم قال : نعم ولقد سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال [اثنا عشر كعدة نقيب بني إسرائيل] هذا حديث غريب من هذا الوجه وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول [لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا] ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت علي فسألت أي ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال [كلهم من قريش] وهذا لفظ مسلم ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحا يقيم الحق ويعدل فيهم ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم بل وقد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعليهم ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة وبعض بني العباس ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره فذكر أنه يواطء اسمه اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم أبيه اسم أبيه فيملاً الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وليس هذا بالمنتظر الذي تنوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية بل هو من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم .

وفي التوراة البشارة بإسماعيل عليه السلام وإن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيما وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود وجابر بن سمرة وبعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر فيتشيع كثير منهم جهلا وسفها لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : { وقال الله إنني معكم } أي بحفظي وكلاءتي ونصري { لئن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وآمنت برسلي } أي صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي { وعزرتموهم } أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق { وأقرضتم الله قرضا حسنا } وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته { لأكفرن عنكم سيئاتكم } أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها { ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار } أي أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود .

وقوله { فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل } أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده

وتوكيده وشده وجده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال { فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم } أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم أي أبعدناهم عن الحق وطردها عن الهدى { وجعلنا قلوبهم قاسية } أي فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها { يحرفون الكلم عن مواضعه } أي فسدت فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا عليه ما لم يقل عيادا با { من ذلك } ونسوا حظا مما ذكروا به { أي وتركوا العمل به رغبة عنه وقال الحسن : تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها وقال غيره : تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة فلا قلوب سليمة ولا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمه } ولا تزال تطلع على خائنة منهم { يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك وقال مجاهد وغيره : يعني بذلك تماؤلهم على الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم { فاعف عنهم واصفح } وهذا هو عين النصر والظفر كما قال بعض السلف ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ولعل الله أن يهديهم ولهذا قال تعالى : { إن الله يحب المحسنين } يعني به الصفا عمن أساء إليك وقال قتادة : هذه الآية (فاعف عنهم واصفح) منسوخة بقوله { قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر } الآية .

وقوله تعالى : { ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم } أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود ولهذا قال تعالى : { فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة } أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضا ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها فالملكية تكفر اليعقوبية وكذلك الآخرون وكذلك النسطورية والآريوسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ثم قال تعالى : { وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون } وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبه من الكذب على الله وعلى رسوله وما نسبوه إلى الرب D وتعالى وتقدس عن قولهم علوا كبيرا من جعلهم له صاحبة وولدا تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد